والموقف الآن هو موقف امتحان للعرب جميعاً — وموقف دفاع عن أنفسهم ، فإذا استطاعوا أن يجتازوا هذا الامتحان — واجتيازه بنجاح ميسور ، والوسائل متوفرة — فلن يبقى للصهيونيين أمل . والمعول على العرب لا على غيرهم ، فأنه ما حك جلدك مثل ظفرك .

ابرهيم عبد القادر المازني

في إرشـــاد الأريب
إلى معرفة الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
— ١٨ —

ج ١٩ ص ٢٥٢ : البحتري :

ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهـو ولا يتكبر

قلت : في ديوانه وفي كثير من كتب الأدب (يزهى) .

في الصحاح : « للعرب أحرف لا يتكلمون بها إلا على سبيل المفعول به وإن كان بمعنى الفاعل ، مثل قولهم : زُهي الرجل ، وعُني بالأمر ، ونُتجت الشاة والناقة وأشباهها . فإذا أمرت منه قلت : لتُزه يا رجل ، وكذلك الأمر من كل فعل لم يسم فاعله ، لأنك إذا أمرت منه فانما تأمر في التحصيل غير الذي تخاطبه أن يوقع به ، وأمر الغائب لا يكون إلا باللام كقولك : ليقم زيد ، وفيه لغة أخرى حكاها ابن دريد : زها يزهو زهواً أي تكبر[1] ، ومنه قولهم : ما أزهاه ، وليس هذا من زُهي ، لأن ما لم يسم فاعله لا يتعجب منه . وقلت لأعرابي من بني سليم : ما معنى زُهي الرجل ؟ قال : أعجب بنفسه ، فقلت : أتقول : زها إذا افتخر ؟ فقال : أما نحن فلا نتكلم به » . والبيت من قصيدة جيدة مطلعها :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر ... وألام من كمد عليك وأعذر[2]

وقد روى ابن خلكان منها سبعة عشر بيتا (فيها البيت المذكور) ثم قال : « وهذا هو السحر الحلال على الحقيقة ، والسهل الممتنع ، فلله دره ما أسلس قياده ، وأعذب ألفاظه ، وأحسن سبكه ، وألطف مقاصده . وليس فيه من الحشو شيء ، بل جميعه نخب » .

قال الصاحب بن عباد في رسالته (الكشف عن مساوي شعر المتنبي[1]) : « جرى حديث أبي عبادة البحتري وهو — يعني ابن العميد — يوفيه حقه الذي استوجبه لجزالة لفظه ، وبشاشة نسجه ، وغزارة طبعه ، وحلاوة شعره . وقال في أثناء هذا المجلس : ما علمت أن في طبع البحتري تكلفا إلى أن قرأت قصيدته في صفة الإيوان (صنت نفسي عما يدنس نفسي) » .

قلت : إن العربية لتحمد الله كثيرا أن كان في طبع البحتري تكلف — كما يقول الأستاذ الرئيس — حتى ينظم شاعرنا هذه القصيدة البارعة الباهرة العبقرية . ولو لم تتجل صفة الأيوان في الديوان لخلا من درة يتيمة .

وأبو عبادة ثالث ثلاثة يرى ابن الأثير صاحب (المثل السائر) أنهم أشعر العرب ، قال :

« والمذهب عندي في تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا ، ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه . وأشعر منهم عندي الثلاثة المتأخرون وهم : أبو تمام ، وأبو عبادة البحتري ، وأبو الطيب المتنبي ، فان هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء » .

ووصف الثلاثة فقال في البحتري :

« وأما أبو عبادة البحتري فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما يكون في شظف نجد إذ تشبث بريف العراق . وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه ؟ فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري . ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه إلى الأفهام » .

وقد نسب قول المتنبي الذي تفضل بإيراده ابن الأثير إلى أبي العلاء . جاء في (وفيات الأعيان) :

(١) روى هذا في الجمهرة ج ٣ ص ٢٥٥ وجاء في هذا الجزء ص ٢٠٣ : الزهو من قولهم زهي الرجل فهو مزهو إذا تكبر

(٢) في طبعة ديوانه : في كمد

(١) نشرتها (مكتبة القدسي) في القاهرة ، والرسالة جيدة مفيدة . وتعقب الصاحب أبا الطيب قد بينه الثعالبي في أخبار المتنبي في يتيمته ج ١ ص ٨٦ الطبعة الدمشقية

« ويقال : إنه قيل : لأبي العلاء المعري أي الثلاثة أشعر أبو تمام أم البحتري أم المتنبي ؟ فقال : المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري » .

وإنه ليستحيل أيما استحالة أن تفلت من الأحمدين هذه الفلتة ، أو أن يتحرك لسانهما بها في المنام ، إنه كلام حاكه أديب ، ومشى هذا القول ، هذا النجل مجهول الناجل في الورى ذا نسبتين .

إن المتنبي ما كان يرى غير نفسه ، وكان زعمه لا يعد الشعراء السابقين إلا قائلين مغيرين منشرين نبي في الشعر يأتي من بعدهم اسمه (أحمد) .

هو في شعره نبي ولكن   ظهرت معجزاته في المعاني[1]

وما تسع الأزمان علمي بأمرها

ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي[2] !

وتعظيم أبي العلاء المجيب لأبي الطيب ثابت مشهور . جاء في (أوج التحري) :

« وكان أبو العلاء يفضل أبا الطيب المتنبي على غيره من الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي وغيرهم ، وإذا ذكر أحداً منهم أو أورد له شيئاً يقول : قال أبو تمام ، قال البحتري ، قال ابن الرومي ، وإذا أورد شيئاً لأبي الطيب قال : قال : الشاعر[3] » :

ولم يكتف أبو العلاء بأن يقصر هذا الوصف على سميه بل ظلم الناس من أجله ، قال ابن خلكان :

« يقال : إن أبا العلاء كان إذا سمع شعر ابن هانئ يقول : ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ ، ولعمري ما أنصفه في هذا المقال ، وما حمله على هذا إلا فرط تعصبه للمتنبي ... وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم . بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة ، وكانا

(١) أبو القاسم مظفر بن علي الطبسي في رثاء المتنبي وقبله :

لا رعى الله سرب هذا الزمان   إذ دهانا في مثل ذاك اللسان

ما رأى الناس ثاني المتنبي   أي ثان يرى لبكر الزمان

كان من نفسه الكبيرة في جيـ   ـش وفي كبرياء ذي سلطان

(٢) المتنبي .

(٣) (أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري) للبديعي . حققه ونشره الأستاذ إبراهيم الكيلاني .

متعاصرين ؛ وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه » .

وإذا أجل نابغة الأدب العربي الطائيين ، وقال فيهما في درعية :

مثل وشي (الوليد) لانت وإن كانت (م)

من الصنع مثل وشي (حبيب)[1]

فإن الحسين عند المعري في مرتبة لا يقاعده فيها أحد .

وإذا قال أبو تمام وأبو الطيب أمثالا وحكماً كما يقول البحتري (وما نرويه هو نموذج من كثير) :

لولا التباين في الطبائع لم يقم   بنيان هذا العالم المجبول

ولا تقل أمم شتى ولا فرق

فالأرض من تربة والناس من رجل

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت

إلى الفضل حتى عد ألف بواحد[2]

نطلب الأكثر في الدنيا وقد   نبلغ الحاجة فيها بالأقل

ومن يعرف الأيام لا يرخفضها   نعماً ولا يعدد تصرفها بلوى

سعوبة الرزء تلفى في توقعه   مستقبلا، وانقضاء الرزء أن يقعا

ينال الفتى ما لم يؤمل ، وربما   أتاحت له الأقدار ما لم يحاذر

ومن الحسرة والخسران أن   يحبط الأجر على طول العمل

إن الشيع لا يبير عدوه   حتى يكون مشيع الأصحاب[3]

أرى الحلم بؤسى في المعيشة للفتى   ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى

تعباً كظن الخائب المكدود

إن التنازع في الرئاسة زلة   لا تستقال ، وذلة لم تنصر[4] !

(١) قال شارح : أي هي في اللين والرقة مثل شعر البحتري، وفي الصنعة المحكمة مثل شعر أبي تمام .

(٢) في مقدمة الكشاف : وإنما الذي تباينت فيه الرتب وعظم فيه التفاوت والتفاضل حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد . وترقى إلى أن عد ألف بواحد ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر . قال الجرجاني في حاشيته : (قوله إلى أن عد) ناظر إلى قول البحتري (البيت) وفي عد ألف بواحد مبالغة ليست في عكسه حيث جعل الواحد أصلا فوبل به الألف مع أن لفظ العد بالكثير أولى .

(٣) المشيع : الشجاع .

(٤) وقبله :

تتجاذبون الجد جذب تعجرف   وتعجرف الأعواد بعض المنكر

وبعده :

ومن العجائب أن غل صدوركم   لم يطف للحدث الجليل الأكبر

قلت : ليستظهر هذه الأبيات كل زعيم أو كبير في قبيل عربي .

ما أضعف الإنسان لو همة   فى نبـــله أو قوة فى لبه
وهل خلا الدهر أولاه وآخره   من قائم يهدى مذ كُوِّن البشر
والعقل من هبة وتجربة   شـكلان مولوده ومكتسبه
قـــدره مرتفع عن حظه   لا يرعك الحظ لم يؤخذ بحق
ليس بحلو وجودك الشيء تبتغيه (م) التماسا حتى يعز طـــلابه
يعرف السيف بالضريبة يلقاها (م) وينبى عن الصديق امتحانه
لا أحفـل المرء أو تقـدمه   شتى خـلال ، أشفها أدبه
ولست أعتد للفتى حسبا   حتى يرى فى فعاله حسبه
وما سفه السفيه وإن تعدى   بأنجع فيك من حلم الحليم
متى أحفظت ذا كرم تخطى   إليك ببعض أفعال اللئيم[1]
وأرى الأخلاق أحجى بالفتى   من ثراء يطغيه بالملق
وأصوب رأى فى الصنيعة ردها   إلى رجـل يغنى غناء رجال
لنا فى الدهر آمال طوال   نرجيها وأعمـار قصـار
والشعر لمح تكفى إشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

إذا قال أبو تمام والمتنبي مثل هذه الأبيات الحكمية البحترية فهل يقال : (أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشاعر البحترى) وليس حبيب بن أوس وأحمد بن الحسين مثل صالح بن عبد القدوس فى إكثاره فى شعره من الأمثال « التى لو نثرها فى شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه » كما قال الملك الأديب عبد الله بن المعتز فى كتابه (البديع)[2] .

ويظهر مما نقل إلينا من أقوال المتقدمين فى حبيب والمتنبي أن أكثرهم وفيهم ابن الأثير نفسه فارقوا الدنيا ولم يعرفوا هذين الشاعرين ، فليست براعة حبيب فى أنه « غير مدافع عن مقام الإغراب الذى برز فيه على الأضراب » وليست فضيلة المتنبي فى أنه « حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال » كما يقول ابن الأثير فيهما .

وللرضى هذا القول الموجز فى شعر الثلاثة :

« سئل الشريف الرضى عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب فقال : أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤذر ، وأما المتنبي فقائد عسكر » وقد روى القول فى (المثل السائر) .

(١) وجدت هذين البيتين فى كتب كثيرة منسوبين إلى البحترى .

(٢) شرحه وعلق عليه محمد عبد المنعم خفاجى بكلية اللغة العربية .

وللشيخ قول فى حبيب فى (رسالة الغفران) وهو « كان صاحب طريقة مبدعة ومعان كاللؤلؤ متبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار » .

وقال القاضى الفاضل فى المتنبي ، وقد روى قوله ابن الأثير فى كتابه (الوشى المرقوم فى حل المنظوم) : (إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس » .

ومن أغرب ما يذكر فى هذا المقام ما سطره ابن خلدون فى الجزء الأول من (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ...) وهو المعروف بمقدمة ابن خلدون :

« كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية — يعنى الشعر — يرون أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر فى شىء ! لأنهما لم يجريا على أساليب العرب ... » .

وقد نعيت فى مقالتى (المتنبي) على ابن خلدون وعلى شيوخه إفلاتهم هذا القول أو افتلاتهم ، ومما قلت :

كلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله ، وشفى ناقل قولهم معهم) ليس بشىء إلا شيئا لا يعبأ به ، فأساليب العرب متنوعة مختلفة ، وليس هناك أسلوب أوحد ، ولكل قبيل طريقة ، وللبدوى بلاغة ، وللحضرى بلاغة ، وللاقليم أو المكان وللخليقة والمزاج أثر وسلطان ، ولكل قرن زى ولحن ، و « أحسن الكلام ما شاكل الزمان[1] » .

والدنيا فى تبدل مستمر « وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر[2] » ، ولكل نابغة نهج معلوم . فتنكب المتنبي عما تنكب عنه ، وسلوكه السبيل الذى سلكه ما ضاره بل ظاهراه فى إبداعه ونبوغه ، وكان ذلك على هذه اللغة من نعم الله .

وقد جاءنا فى هذا الوقت العالم الفاضل (دكتور محمد كامل حسين أستاذ جراحة العظام بكلية الطب) بآراء فى ابن الحسين وشعره فى مقالة عنوانها (التعقيد فى شعر المتنبي) فى مجلة : (الكاتب المصرى) الغراء .

ونحن لا نجاد له لكننا نسائله « إن على (عالمنا) أن نسأله » ؟ .

(١) المأمون . رواه الثعالبي فى (الإيجاز والإعجاز) .

(٢) الفيلسوف النابغة ابن خلدون فى مقدمته العبقرية .

ألا يرى دكتور محمد — وقد عاود التفكير فى بحثه — أن سبب التعقيد فى شعر المتنبى — وكثير منه هو فى قرزمته[1] — لم يكن كما فسر[2].

وأن من أسبابه كون الرجل مولدا (قد تسلم العربية تعلما إياها فى هذا الزمن) لا جاهليا أو إسلاميا يلهم تأليف القول إلهاما وأنه ما كان يفكر فى القافية ليبنى عليها البيت كدأب حبيب ، وأن كبرياءه كانت تأخذ ما يجئ فى بعض الأوقات فلا يعنى بتقويمه ، وأنه كان يستعجل فى النظم ، وقد أشار ابن جنى فى (الخصائص) ص ٣٣٢ إلى هذه السرعة . ثم إن المعانى الجديدة ليست كالمعانى المتداولة المعهودة سهلة التبيين ، وانظر إلى ابن خلدون حين كتب وابن المقفع لما نقل . وإنى لأتذكر أن العلامة الدكتور طه حسين بك شبه فى أحد مباحثه كلام ابن المقفع بكلام المربانيين (الفوج المستشرقين) لاضطرابه واختلال نظامه . وعذر عبد الله وعبد الرحمن عند المنصفين ظاهر مبين .

هل يرى دكتور محمد أن مئات من الأبيات المعقدة والمهلهلة فى طائفة من قصائد المتنبى — لا بضعة الأبيات التى أوردها أمثلة — يذهبن حسنات القصدات ذوات الألوف من الأبيات المحكمة المحققة ؟

وإذا استبشع صورة هذا البيت فى قصيدة ، والأذواق تختلف :

قد سودت شجر الجبال شعورهم
فكأن فيه مسفة الغربان[3]

فهل يستملح هذه الصورة فى القصيدة عينها :

فى جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان[4]

ألا يرى دكتور محمد أن السيفيات والكافوريات والعضديات قد اشتملن على معان متنوعة ، ومقاصد مختلفة ، وبحلى فيهن خيال صالح ، ووعين صوراً رائعة للقارئين ، وأنه لم تسلم من العيوب قصائد نقدرها لشاعر من الشعراء أكثر من سلامتها . لتأخذ تلك القصائد ولنترك ما طم الرحل من قبلها وإن كان تاليه يجد فيه شيئا عظيما باهرا .

ماذا يغزو دكتور محمد بقوله : « فاعجابنا بشعر المتنبى إعجاب عقلى محض أو بعبارة أخرى إعجاب بالصياغة » فإن هاتين الجملتين متعاندتان لا تلتقيان . وإن قصد بالصياغة ما يعنيه مغزى الكلمة فى هذا الباب فاعجاب العرب بشاعرهم لم يجيء من صوب صياغته ، ولو حاول أن يسير فى تلك الطريق المتعبة لعاصاه مزاجه ، ولن يضع منه عندنا أنه لم يكن ذا صياغة . وإذا أعجبنا بقول حبيب الصائغ :

ما إن ترى الأحساب بيضا وضحا إلا بحيث ترى المنايا سودا

أيما إعجاب . فقد تقبلنا قول المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

خير تقبل ، ومعنى البيت واحد . والصياغة البازعة المحيرة عند الغواص الصواغ فى الأول ، والطبيعية البلينة الفصيحة مع الحلق فى سماء القول فى الثانى .

يقول دكتور محمد : « وهو من حيث الشعر العربى قد يكون عظيما ولكنه من حيث الشعر إطلاقا لا يمكن أن يكون ذا خطر » .

فمن أصحاب هذا الشعر من العرب أو العجم فى مذهبه ؟ .

ما قوله فى شكسبير شاعر الإنكليز ؟

ما قوله فى غوته شاعر الجرمان ؟

ما فضيلة هذين الشاعرين عنده ؟

هل لدكتور محمد أن يروى لنا نموذجا أو نتفة من خير ما قال غوته أو من خير ما قال شكسبير أو من خير ما قال شاعر من أرباب (الشعر إطلاقا) ؟

دكتور محمد كامل حسين قد ظاهر فى الفصل بين النوعين ، وقد استبد بمنقبتين ، فنحن نشتهى علمه وأدبه ونستفتى غير

(١) القرزمة الابتداء بقول الشعر .

(٢) « ... أما النوع الثانى من تعقيد المتنبى فسببه أعمق وشرح ذلك أن كثيرين من الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقنعوا بأنهم يستطيعون ما يريدون متى أرادوا . ومن ذلك أمثلة مضحكة ، منها الرجل الذى يسير على أفريز فى الشارع متعمدا ألا يضع رجله على فاصل بين حجرين . هذا النوع من العمل له دلالة معينة ترد كثيرا عند التحليل النفسى ... فالتعقيد ظاهرة واضحة الدلالة على عقلية المتنبى إبان شبابه ، وهى دليل صريح على صغار فى النفس وقصور فى الهمة والكفاية وعلى تباعد ما بين غناء الفن وآماله

(٣) العكبرى : أسف الطائر دنا من الأرض فى طيرانه . يقول لكثرة القتلى وطيران شعورهم على الأشجار اسودت بها فكأن الأشجار لسوادها بشعورهم قد دنت منها الغربان

(٤) هذا البيت اشتهى الناس أن يكون قد سبق المتنبى إلى معناه